الحضارة في فكر مالك بن نبي

Civilization in the mind of Malik bin Nabi

[1]: إبرير الطاهر، [2]: بنادي محمد الطاهر

[1] جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، ، ibrirteher@mail.univ-biskra.dz

[2] جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، ، bennadimoh@mail.univ-tlemcen.dz

تاريخ الإرسال: 30-03-2018**تاريخ القبول**: 01-12-2020**تاريخ النشر**: 15-12-2020

ملخص: طرح الأستاذ مالك بن نبي مفهومين للحضارة أحدهما وظيفي والآخر تركيبي، أنها ناتج تركيب لعناصر ثلاثة "إنسان + تراب + وقت "، ويشحنهم الدين لإنتاج مراحلها التي تقوم عليها دورة هذه الأخيرة كما اعتبر توينبي أنها تخضع لقانون التحدي والاستجابة، وقد شكل الدين شرط أساسي لقيامها في فكر بن نبي، واتفق في ذلك مع ابن خلدون الذي خصه بالكثير من الاهتمام والعاطفة الدينية. كانت محاولة العلامة ابن خلدون رائـدة في تفسير التاريخ، إذ استطاع قبل غيره أن يكشف منطق التاريخ في مجرى أحداثه، وقد أدرك أرنولد توينبي في تفسيره للتاريخ أن الرقعة الجغرافية لها دور بارز في نشوء الحضارة، لكن مالك ابن نبي لم يتفق معه في العامل الجغرافي واكد ان الحضارة نتاج العوامل الثلاث، وفسر التاريخ على انه علم يتتبع ويدرس كل الأماكن التي يتردد عليها الإنسان أو يمر منها، والتي تدخل في تأقلمه مع بيئته، أي أنه ذلك التغيير الذي تتعرض له الذات والمجال الذي يحتويها، والثقافة تمثل الجانب المعنوي، والعلاقة تبقى بينهما علاقة تلازم حسب ابن خلدون.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي؛ الحضارة والتاريخ؛ الحضارة والدين؛ الحضارة والثقافة.

Abstract: Professor Malik bin Nabi presented concepts of civilization, one functional and the other composite, resulting from the three elements "human, soil and time" shipped by religion to produce the stages of civilization, then comes the spirit phase of the stage of mind and then the stage of instinct. It is the end of civilization.And religion in the mind of Malik bin Nabi is the shipper, agreed with Ibn Khaldoun to regard religion and religious feelings as the most effective means of solving ethnic problems and avoiding differences between ruling groups and the people.Civilization and culture represent the material and moral aspects of society, according to Ibn Khaldoun.

Keywords:Malik bin Nabi, Civilization and history, Civilization and religion, Civilization and Culture.

المؤلف المرسل: إبرير الطاهر ، الإيميل: ibrirteher@gmail.com

الحضارة في فكر مالك بن نبي

مقدمة: منذ منتصف الثلاثينات برز المهندس مالك بن نبي يختط للنضال سبل الفاعلية، ويمنح الشباب الجزائري أفاقا تبدد الضباب الاستعماري، ويضع لثقافة الجيل أسسا من أصالة التاريخ وقيم الحضارة، هذه الأصالة تبرز في كل كتبه ومقالاته.

فقد اختط بن نبي طريقا عميقا في فهمه للأحداث وقراءتها، ومنها طرح القواعد الثابتة لتطور التاريخ، ونور الشعب الجزائري والأمة الإسلامية بمفهومية راسخة في نبذ الاستعمار، ولم يكن هذا الطريق بالسهل بل كان من أصعب الطرق في الحقبة الاستعمارية، إن تحدث عن المجتمع العربي فإنه يعالج المظاهر المرضية التي انتظمت فيه من أقصاه إلى أقصاه، وإن تحدث عن بناء جديد فإنه يبرز الحاجة إلى حضارة وفق منظوره الفكري والتي بدورها تساهم في مواكبة العالم المتقدم، لأننا قد انعكست علينا مظاهر الحضارة الغربية مستسلمين لمعطياتها التي أرادت أن نكون عليها، وقد أسهم هذا اللبس في شائعة الشعور بأزمة الإسلام في العصر الحديث، والتهم التي ألصقت به عمدا مثل التطرف والإرهاب والتعصب الديني، وما كان الإسلام والعقيدة الإسلامية إلا تسامحا وتكريما للإنسان لإنسانيته.

لقد عاش مالك بن نبي في أوربا مدة من الزمن، كانت هذه السنوات الطويلة والخصبة بالنسبة إلى رجل مثقف عميق الثقافة سببا في إظهار ذاتيته وإيقاظ الشعور في نفسه وفكره، وكان تعمقه في الثقافة الأوربية سببا في تحرره من نفوذها.

ومن هذا المنطلق طرحنا الإشكالية الآتية:

- ما الحضارة في فكر مالك بن نبي والعوامل التي ساهمت في تشكلها؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية عدة تساؤلات فرعية:

- ما الحضارة عند مالك بن نبي؟ وماهي أهم إسهاماته الفكرية في تفسيرها؟
- كيف كان ينظر للحضارة والتاريخ؟
- أين البعد الديني والثقافي في فكر مالك بن نبي وعلاقتهما بالحضارة؟

مفهوم الحضارة:

الحضارة لغة: جاءت كلمة الحضارة من الفعل حَضَر، حضورا وحضارة، و وردت في لسان العرب "الحضارة تعني الإقامة في الحضر" (منظور، دت، صفحة 197).

يعرفها محب الخطيب في قاموسه "الحَضَارة ، الحاضر ،الحضور، والحضر هي المدن" سميت بذلك لأن أهلها حضَّروا الأمصار ومساكن الديار التي لهم بها قرار" (الزبيدي، دت، صفحة 268), وتكاد جل أمهات المعاجم اللغوية تجمع على أن الحضارة من الحضر أي الإقامة في المدن و هي خلاف البادية، باعتبار أن الحضارة ماديا متجسدة في التمدن (شريف، 2000، صفحة 45).

الحضارة اصطلاحا: هناك عدة تعريفات:

التعريف الموضوعي: تطلق على جملة من مظاهر التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني، التي تنطلق من جيل إلى جيل في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متماثلة.

التعريف الذاتي المجرد: فتطلق كلمة حضارة على مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني المقابلة لمرحلة التوحش والهمجية، أو تطلق على الصورة الغائية التي تستند إليها في الحكم على صفات كل فرد أو جماعة، فإذا كان الشخص يتصف بالأخلاق الحميدة قلنا أنه متحضر والعكس.

يطلق لفظ الحضارة عند علماء الأنثروبيولوجيا (علم الثقافة والإنسان) على مظاهر الحياة في كل مجتمع متخلف كان أو متقدم، وتطلق على مظاهر التقدم الفكري والمادي معا (بوبكر، 2010، الصفحات 35-36).

الحضارة في فكر مالك بن نبي:

طرح الأستاذ بن نبي مفهومين للحضارة، أحدهما وظيفي والآخر تركيبي، ففي تعريفه الوظيفي تحدث عن وظيفة الحضارة في المجتمع فهي" مجموعة الشروط الأخلاقية و المادية التي تُتِيح

لمجتمع معين أن يقدم لكل أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية لنموه" (نبي، 1991، صفحة 43).

حسب بن نبي فالأشكال المختلفة من المساعدة التي يقدمها المجتمع للفرد الذي ينتمي إليه، إنما تعتبر صورة عن الحضارة، ويعقد لنا مالك بن نبي مجموعة من الأمثلة كالمدرسة والمستشفى وشبكة المواصلات والأمن عبر الطرقات وغيرها، هذه الأشكال المادية منها والمعنوية إنما تعبر عن الحضارة في تظافرها وذلك حسب تصور الأستاذ مالك بن نبي، إذ أن كل منها تقوم بوظيفة ما في المجتمع.

يورد بن نبي في ذات السياق ،تعريفا آخر مماثل تقريبا في المعنى ويكاد يطابق التعريف السابق في المبنى فيقول بأنه: "يمكن تعريف الحضارة في الواقع بأنها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تُتِيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه" (نبي، مشكلات الافكار في العالم الاسلامي، 2000، صفحة 32)، أي أن الحضارة تمثل المناخ الذي يوفر للفرد الحرية والحماية ويقدم له كل ما يحفظ وجوده، فهي ببسيط العبارة تصنع المجتمع وتوفر له ما يضمن بقاء أفراده وتطورهم، فالجانب الذي يتضمن شروطها المعنوية في صورة إدراك يحرك المجتمع نحو تحديد مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها، والجانب الذي يتضمن شروطها المادية في صورة إمكان، أي أنه يضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بمهماته " (نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، 2005، صفحة 61).

المفهوم التركيبي للحضارة يخضع لثلاث شروط (الإنسان+ التراب+ الوقت) فالإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا، والتراب بخضوعه لعمليات فنية معينه، والزمن بإدماجه ضمن العمليات

الاقتصادية والصناعية والاجتماعية ومن تفاعل أو تركيب هذه العناصر تتحقق الحضارة (خالد، 1997، الصفحات 178-179).

يرى مالك بن نبي أن الحضارة ناتج تركيب لعناصر ثلاثة لا غير (نبي، مشكلة الحضارة، 1978)، فهي "إنسان +تراب +وقت "ويضرب مالك بن نبي مثالاً علميا على ذلك فيقول أنه "في المصباح مثلا يوجد إنسان خلف العلمية الصناعية التي يُعد المصباح ثمرتها والتراب في عناصره من موصل وعازل وهو يدخل في نشأة الإنسان العضوية، والوقت يبرز في جميع المعطيات، وهو ينتج المصباح بمساعدة العنصرين الإنسان والتراب" (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 49)، فلكي نقيم حضارة لابد من توفر شروط ثلاثة تمثل عناصر أساسية للحضارة و الشاحن لهذه العناصر الثلاثة هو الدين .

لعل أن الباحث غازي التوبه قدم ملاحظة نقدية بشأن نظرية الحضارة عند مالك بن نبي مفادها أن المعادلة التي قدمها هذا الأخير (إنسان +تراب+ وقت) خاطئة، والوضع الصحيح للمعادلة حسب رأيه: إنسان متوازن = حضارة.

ولما كان المسلم (متوازناً)،تصبح المعادلة كالتالي: إنسان مسلم =حضارة (التوبة، 1977، صفحة 78)، غير أن غازي التوبة في حد ذاته لم تسلم وجهة نظره من النقد فإنه-حسب موسى لحرش- "لم ينتبه إلى تدخل الفكرة الدينية عموما كمركب لعناصر الحضارة ومصدر لتوازن الإنسان" (لحرش، 2006، صفحة 135).

عناصر الدورة الحضارية عند مالك بن نبي:

1- الإنسان: يعتبره مالك بن نبي محور الفاعلية في حركة الحضارة فهو الكائن الحضاري الذي ينتج الحضارة بالتغيير والحركة، هذا الإنسان الذي لا يستطيع أن يغير التاريخ حسب الأستاذ

مالك بن نبي إلا إذا غير نفسه فلطالما عبر بقوله "غير نفسك تغير تاريخك " (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 35).

كان يستمد دليله في ذلك من القرآن الكريم فيذكر قوله تعالى "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (سورة الرعد الآية 11) ويتحدث مالك بن نبي عن الإنسان الاجتماعي وجهده الجماعي المنتج للحضارة بغض النظر عن نوعه وجنسه، وهي إشارة إلى الواقع الاجتماعي الجزائري الذي لا يختلف عن واقع الإنسان المسلم المعاصر عامة فهو يعيش أزمة ركود وعزوف عن الحركة والتخلي عن السير في ركاب التاريخ.

إذ يستخدم مالك بن نبي صيغة الجماعة، إنما يعبر بذلك عن الدور الاجتماعي الجماعي للإنسان، فيعتبر أن الحضارة ليست منتوج فرد إنما هي منتوج جماعي، وعبر عن ذلك في تعاريفه الوظيفية للحضارة، كما يعتبر الشخص في حد ذاته مولود الحضارة "فالشخص في حد ذاته نتاج الحضارة إذ هو يدين لها بما يملك من أفكار وأشياء" (نبي، ميلاد مجتمع، 1986، صفحة 29).

فالإنسان يتلون حسب طيف الحضارة فهو نتاجها ومنتجها، فقوتها من قوته واضمحلالها وانحلالها إنما يعود لضعفه، فالتاريخ دائما يبدأ بالإنسان المتكامل وينتهي كذلك بالإنسان المنحل (نبي، وجهة العالم الاسلامي، 2002، الصفحات 32-33)، وهو يؤثر في تركيب تاريخه بمؤثرات ثلاث (بماله، بجهده، بفكره) (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 65).

التوصل إلى هذا النوع من الإنسان ليس بالأمر الهين، فإعداده وتجهيزه أعسر بكثير من التصور، يبقى الإنسان عند مالك بن نبي العنصر الأول والأساسي في الحضارة وبناءها كونه يتحرك ويبدع ويتحدى، فهو وحده قادر على أن يعوض ضعف العنصرين الآخرين (الوقت، والتراب)، إن إنسان مالك بن نبي وفق شروط حددها هو الوحيد القادر على استغلال باقي

العناصر المشكلة للمعادلة في صناعة الحضارة ضمن المسار التاريخي لذا "يجب علينا أولاً أن نضع رجالاً يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى" (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 82)، فالإنسان عند مالك بن نبي واحد بطبعه، متعدد حسب وضعه، ويختلف باختلاف ظروفه، ويبقى العنصر الأول الأساسي والفعال في بناء الحضارة.

2- التراب (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 49): تتكون الحضارة عند مالك بن نبي كما سبقت الإشارة من ثلاثة عناصر (إنسان +تراب +وقت)، وفي عرضه لهذا ركز على العنصر الأساسي والهام وهو الإنسان، واختصر في الحديث عن العنصرين الباقيين، والسبب في ذلك كما يرى هو أن التراب والوقت لا قيمة لهما إلا بالإنسان، فيتكلم عن قيمة التراب التي تستمد من قيمة الإنسان، وحينما نتكلم عن التراب لا نبحث عن خصائصه وطبيعته ... ولكننا نتكلم عنه من حيث قيمته الاجتماعية مستمدة من قيمة مالكيه" (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 139)، ذلك أنه حينما تكون قيمة المجتمع مرتفعة فإن للتراب قيمة عالية استلزاما وهو دليل التقدم الحضاري فالتراب عنده هو المجال الحيوي، ويعني به كيفية التعامل مع المجال، أي كيف نكيفه ونتعامل معه، ثم كيف نستغله حسب أهدافنا وحاجاتنا، فالبناء الحضاري عنده لا يحتاج إلى مكان إقامة (الرقعة الجغرافية) التي نقيم عليها بناء حضاري، إنما التراب هو "مجال مجهز مكيف تكييف فتي يسد حاجات الحياة الاجتماعية تبعا لظروف عملية الإنتاج " (نبي، وجهة العالم الاسلامي، 2002، صفحة 32).

بالتالي فالتراب بالنسبة لمالك بن نبي هو مورد ثروة حضارية، وطرق استغلاله هو العامل الحاسم في بناء الحضارة، فهو لا يقاس بالمساحة ولكن بقيمة الاستغلال، ويورد عدة أمثلة تدعم ما يذهب إليه فيما يتعلق بقيمة التراب المستمدة أساسا من قيمة مالكيه من جهة، وكذا الدور الفعال له في البناء الحضاري من جهة أخرى، وهذا يتوقف حسب الأستاذ مالك بن نبي على

الاستغلال أي مدى توظيف العقل لهذه الثروة، ففي تبسة مثلاً تحولت إلى صحراء بعد غزو الرمال لها من الجنوب وهي تتقدم مع تقدم الزمن، وقد وقف سكان هذه الأرض منها موقف الضعيف، إن هذا التحول في الأرض الزراعية الخصبة إلى أرض فلاة ثم إلى صحراء ، يحول حرفة أهل البلاد من الزراعة إلى رعي الماشية ومنها إلى لا شيء .

إنها صورة واضحة ومعبرة رسمها مالك بن نبي عن الوضع الاقتصادي لحالة من الجهة الشرقية لقسنطينة، وهي إشارة إلى أن التراب حقيقة يستمد قيمته من قيمة مالكيه (القيمة الاجتماعية)، ضرب لنا مثالاً آخر عن فرنسا التي أقامت سداً من الأشجار في الناحية الجنوبية الغربية للبلاد عام 1850 بغرض إيقاف الرمال عند حدها، فتحولت المنطقة من فقيرة و بها بيئة مضـــرة للصحة إلى منطقة ذات حركة اقتصادية كما أصبحت أول منتج للزيت المستخرج من الأشجار، وملجأ الكثير من المرضى بما وفرته من جو لطيف وهواء نقي (نبي، شروط النهضة، 1976، الصفحات 139-143).

3- الوقت : لا يتحدد العنصر الزمني عند مالك بن نبي كمدة زمنية تقيم بالساعات، وإنما يتحدد من خلال المفهوم الوظيفي الذي يقيم الأعمال التي أنجزت في ظل فترات زمنية معينة، فالزمن عنده هو" الذي يتم تكييفه اجتماعيا حيث يحول الزمن إلى زمن اجتماعي بإدماجه ضمن جميع العمليات الصناعية والاقتصادية أو الثقافية باعتباره ركيزة تقوم عليها سائر اطرادات هذه العمليات" (نبي، القضايا الكبرى، 1991، صفحة 56)، فتحويل الوقت من مجرد زمن خامد لا قيمة له، إلى وقت ذو قيمة مجتمعية حضارية إنما يكمن في استغلاله من أجل الإنتاج، فهو يرافق الإنسان في توظيفه للتراب في جميع المراحل من أجل المنتوج الحضاري وفق المعادلة الحضارية لمالك

بن نبي، ويولي مالك بن نبي قيمة للوقت كحال التراب، ويُلفتُ النظر إلى أنه ذو قيمة حين تكون الأمة ذات قيمة، والعكس كذلك فقلة أهمية الوقت توحي بتخلف الأمة.

يبقى الاستغلال الأمثل حسب بن نبي دلالة على أن الوقت ثمين، ولذلك علينا أن نعلم المسلم علم الزمن وهو كيفية استغلال الوقت كطاقة حيوية وأساسية، وإذا ما تم ذلك وفق ما يسطره مالك بن نبي فسترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي ،وأهمية الوقت تكمن في التربية فمثلا "نعلم الطفل و المرأة والرجل تخصيص نصف ساعة يوميا لأداء واجب معين فسوف يكون لديه في نهاية العام حصيلة هامة من ساعات العمل لمصلحة الحياة الإسلامية في جميع أشكالها العقلية والخلقية والفنية والاقتصادية والمنزلية " (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 147).

هذه التجربة قامت بها ألمانيا عقب الحرب العالمية الثانية، ومع مرور الزمن أصبحت ألمانيا ذات مكانة حضارية، والسر في ذلك كله هو الزمن الذي عرفت قيمته فأحسنت استغلاله، أما الوقت فلا يتحدد بمدة زمنية وإنما يتحدد من خلال مفهومه الوظيفي الذي يقيم الأعمال التي أنجزت في ظل فترات زمنية معينة.

الفكرة الدينية (محمود، 1983، صفحة 94): صاغ الأستاذ مالك بن نبي المعادلة الحضارية الثلاثية (إنسان +تراب+ وقت) وأكد على أن أي إنتاج حضاري نستطيع الحصول عليه انطلاقا من هذه المعادلة، فابتداءً من الإبرة كأصغر دليل وانتهاءً عند الصاروخ، كلها ناتج حضاري للمعادلة، ثم تساءل عن عدم وجود هذا الناتج الحضاري عند توفر هذه العناصر الثلاثة؟.

في هذا الإطار يرى بأنه من المفيد أن نقرأ المعادلة الحضارية على نحو المعادلات الكيميائية، ويضرب مثالا بالماء، الذي يتركب في الأساس من أوكسجين (O) وهيدروجين (H): أي أن

الماء=2H+O إن وضع ذرتي الهيدروجين مع ذرة الأكسجين لا ينتج بالضرورة ماء، ذلك لأنه لابد من وجود مركب يزيد من طاقة التفاعل فيما بينهما لينتج الماء.

وحسب مالك بن نبي فإن الاحتكام إلى هذه المعادلة يقودنا إلى القول" أن هناك ما يطلق عليه (مركب الحضارة) أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض " (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 50) وبهذا تكون الحضارة مع توفر عناصرها مرهونة بفكرة دينية، تتجلى في شكل قيم أخلاقية وعادات وتقاليد وقواعد إدارية ومبادئ تشريعية وغيرها ..." إن للفكرة الدينية دور في تحريك وتنمية المجتمعات حضاريا، وهي شاحنة لكل فرد وتحقق التمازج والتفاعل بين مختلف عناصر الحضارة " (لحرش، 2006، صفحة 137)، فالفكرة الدينية رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ، فكلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان في الأحقاب الغابرة لحضارته أو في المراحل الأخرى لتطوره الاجتماعي فإنه يجد سطوراً من الفكرة الدينية" (نبي، الظاهرة القرآنية ، 2004، صفحة 68)، فالعقيدة الدينية تطبع الفرد بطابعها الخاص وتوجهه نحو غايات سامية .

مراحل الحضارة عند مالك بن نبي:

يرى مالك بن نبي أن الدورة الحضارية عبارة عن وحدات متشابهة تنتقل من مكان لآخر ويشّبه سيرها بالشمس ويقول إن أي حضارة لها نقطة صفر تنطلق منها وهي نقطة ما قبل التحضر ونقطة نهاية تتوقف عندها، وهي مرحلة ما بعد الحضارة، وقسم مراحلها إلى ثلاث مراحل:

شكل يمثل الدورة الحضارية عند مالك بن نبي (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 66)

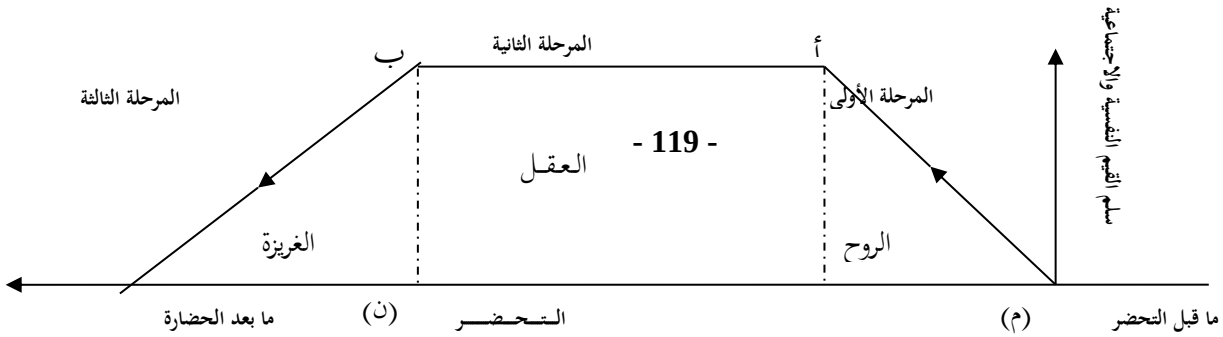

1- **مرحلة الروح**: ترتبط هذه المرحلة بالعقيدة الدينية وتعمل الروح على كبح الغريزة فيتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة، ويكون وجوده مرتبط بالمقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، معنى ذلك أن الإنسان كان يعيش الحياة الفطرية يعتمد على قانون الطبيعة لكن بوجود الفكرة الدينية أي الروح قضت على الغريزة ودخل الفرد في التاريخ من زاوية جديدة، فأصبحت الروح تسيطر على الغريزة، ويكون الفرد في أحسن ظروفه التي يكون فيها نظام أفعاله في أقصى فعاليته الاجتماعية وتكون طاقته الحيوية في أتم حالاتها تنظيما (نبي، ميلاد مجتمع، 1986، صفحة 109) .

تتميز هذه المرحلة باندفاع قوي ترجع إليه كل التطورات الحاصلة في المجتمع، سواء كانت أزمات مفضية إلى تقهقر أو قفزات مفضية إلى تقدم، فالروح تمثل في النهاية سلم القيم النفسية الزمنية التي تميز مستوى حضارة ما في وقت معين حسب رأي بن بني، فالإنسان في هذا المجال يصبح يمارس حياته وفق قانون الروح الذي ينظم غرائزه ويعرفه مسوغات وجوده، وبهذا يكون المبدأ في هذه المرحلة هو تشكيل مجموعة قيم تجعل من الإنسان وحدة اجتماعية، والفاعلية التي يحدثها الجانب الروحي تعكس مختلف نشاطات الفرد وتكون هذه المرحلة فترة صعود الحضارة ورقيها.

فالحضارة الإسلامية عرفت بداية تشكلها وفعاليتها في مرحلة الروح التي تبدأ من غار حراء (نزول الوحي)، إلى عهد الخلافة الراشدة، وانتهت هذه المرحلة في سنة 37 هجرية وهو ما يوافق موقعة صفين التي أخرجت الحضارة الإسلامية من طور يسوده المنطق إلى طور يسوده العقل وتزينه العظمة (لحرش، 2006، الصفحات 151-155).

2- مرحلة العقل: هناك عدة تساؤلات منهجية تطرح نفسها في هذا الصدد لماذا العقل؟ هل مرحلة الروح لاتتوفر على العقل؟ لإزالة هذا اللبس يمكن القول أن كلمة عقل هنا جاءت حسب المحتوى الذي ضمنه إياه بن نبي والتي تكون متحررة من سلطة الروح (المبدأ الأخلاقي)، والتي

تسمح ببداية ظهور الحسابات الشخصية المصلحية (بروز الأنانية)، وإن العقل كجهاز إدراك واستبصار يحقق المعرفة ومرحلة العقل تؤدي بمرحلة الروح إلى التراجع والانكماش مما يؤدي ذلك بصفة آلية إلى توقف صعود الحضارة (نبي، شروط النهضة، 1976، الصفحات 76-77).

فالحضارة الإسلامية مثلا تخلت عن مبدأ الروح الذي كان يسودها في مراحلها الأولى والذي كان من نزول الوحي إلى الخلافة الراشدة، ومرحلة العقل تبدأ مع حكم العصر الأموي والعباسي الأول ومن تلك الفترة أتجه الأفراد إلى تقديس الأشخاص مهما كان قربهم أو بعدهم عن مبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما نتج عنه بروز المذاهب والاتجاهات السياسية والفقهية المتصارعة فيما بينهما وهذا شكل بداية التمزق للحضارة من خلال سيادة العقل بدل المبدأ الروحي (لحرش، 2006، الصفحات 156-158).

وهنا يكون الصراع بين الغريزة الطامحة نحو التحرر وسيطرة الروح والمجتمع في هذه الفترة يواصل تطوره إلى غاية أن تكتمل شبكة الروابط الداخلية فتنشأ المشاكل لهذا المجتمع نتيجة توسعه فزيادة نموه تؤدي إلى زيادة حاجياته ومطالبه الاجتماعية، وهذا يفقد المجتمع توازنه وتنشأ طبقة الأفراد التي يسيطر عليها العقل أي الاجتهادات المتحررة من الروح، وتمثل فترة بداية إنحطاط الحضارة (نبي، ميلاد مجتمع، 1986، صفحة 111).

3- مرحلة الغريزة : (مرحلة الانحطاط) هذه المرحلة تبدأ في نظر بن نبي من زمن ما بعد الموحدين إلى يومنا هذا، وهنا تنتهي مرحلة الوظيفة الاجتماعية للمبدأ الأخلاقي (الروح)، وتصبح هذه الأخيرة عاجزة عن القيام بمهامها تماما، وفي هذه الفترة يكون الإنسان والتراب والوقت من العوامل الحضارية الخامدة، وتتميز مرحلة الغريزة بسيطرة الشيء بحيث يتحول الهدف من النشاط الاجتماعي إلى ما يعرف بالكم أو العدد، وهنا يكون العمل منصب على ماذا تحصلت المجتمعات من الأشياء

أو الكميات الناتجة من الحضارة، وبذلك تفقد الروح المبدأ الحضاري وتجري وراء الكم (نبي، ميلاد مجتمع، 1986، صفحة 113)، فالحضارة بهذا المعنى تبدأ حينما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي وتنتهي بفقدان هذا المبدأ لسيادته على الحياة الطبيعية والمجتمع وهنا تسيطر الغريزة وتبدأ الحضارة في الأفول، في انتظار عامل يشحن مبدأ الروح لتعود الدورة الحضارية من جديد، ورأي بن نبي أن عامل الشحن في هذه الحالة هو الرجوع إلى الدين لأنه في نظره هو محرك عوامل تركيب الدورة الحضارية (لحرش، 2006، الصفحات 159-165).

الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي:

ارنولد توينبي مؤرخ بريطاني بحث في السنن والقوانين التي ساعدت على قيام الحضارات، وقد اتبع في ذلك منهج المقارنة بين الحضارات عبر التاريخ الإنساني الطويل كتب موسوعته دراسة للتاريخ في20 سنة، تأثر المؤلف بالعلامة ابن خلدون واعتبر أن كتاب المقدمة لهذا الأخير هو أعظم إنتاج يصل إليه العقل البشري في تلك الفترة، وقد دله هذا العالم على منطلقات دراسة التاريخ حيث اعتبر توينبي أن قيام الحضارة يخضع لقانون التحدي والاستجابة، استجابة الطبيعة من خلال التغيرات الحاصلة فيها من جفاف ونقص في المياه ومناطق الرعي وتحدي الإنسان لهذه الظروف من خلال التأقلم بخلق وسائل عيش جديدة أو الهجرة وبالتالي قيام حضارة جديدة في مكان أخر، وأن سقوط أي حضارة سببها الإخفاق المتتالي الذي منيت به الاستجابة في مجتمع معين، وقد أيد مالك بن نبي المؤرخ توينبي في مكانة العلامة ابن خلدون وفضله في كتابة التاريخ وأنه آخر المؤرخين والمفكرين المسلمين الذين أنجزوا عملا علميا بهذا الحجم والعمق، وبالنظر إلى مكانة الدين في بناء الحضارات فإن المفكرين الثلاثة اتفقوا أنه عامل أساسي في بنائها حيث يعتبره بن نبي أنه بمثابة الشاحن لعناصر قيام الحضارة، وابن خلدون اعتبر أن الدين له دور بارز في قيام الحضارات، أما توينبي فإنه يرى أن النشاط الديني لا يتزامن مع بدء الحضارة وصعودها وإنما يتزامن مع ضعفها

وانهيارها، وقد توقع أن الغرب سوف يعتنق دينا جديدا قادما من الشرق (بريون، 2010، صفحة 167).

وكان رأي مالك بن نبي متشابها لما جاء به توينبي فيما يخص الحضارة الإسلامية، حيث تنبأ بتحول مركز جاذبيتها من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى آسيا، وأن باكستان و اندونيسيا هما مركز الحضارة الجديدة (نبي، وجهة العالم الاسلامي، 2002، الصفحات 208-213).

إن لكل من توينبي وبن نبي نزعة دينية مؤثرة في نظرتهما للحياة والكون والتاريخ، ولذلك فإنهما يركزان على العودة للدين في النهوض بالحضارة أو قيامها من جديد، ولقد اهتم توينبي بالتنوع داخل الحضارة وأطلق على الحضارة الغربية السائدة صفة ما بعد المسيحية، وأن العلمانية التي ألصقت بهذه الحضارة غير صحيحة فهي ما تزال مسيحية في جوهرها، وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام هي الغربية والشرقية وكذا الأرثوذكسية، وهو تقسيم لم يوافق عليه مؤرخون آخرون، وقد قسم الحضارة الإسلامية إلى قسمين هما الحضارة التركية والفارسية وتمتد من جنوب شرق آسيا إلى الهند، والحضارة العربية وتمتد من مراكش إلى اندونيسيا، وهو تقسيم جغرافي مذهبي بالنسبة للحضارة .

أما بن نبي فقد تبنى المدخل الثقافي الاجتماعي وأن الثقافة هي النسق الذي يتحكم في الحضارة، وقد اختلف توينبي مع بن نبي في الأساس الفلسفي، فالأول ينظر إلى التاريخ الحضاري لأجل الرصد التاريخي وترتيب الوقائع، والثاني ينظر إلى التاريخ الحضاري لبناء شروط النهضة وقيام الحضارة لإنتاج منتجاتها لكونه مفكرا اجتماعيا، واعتبر التاريخ وسيلة من وسائل الفهم لشروط قيام الحضارات وفق مراحل تطورها (بريون، 2010، صفحة 168).

من خلال دراسة تأملية استنتاجيه لمالك بن نبي لمقومات الحضارة وشروطها، فقد خرج بفرضية أساسية في منظومة تفكيره "إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته" (نبي، شروط

النهضة، 1976، صفحة 19) ويرى الكاتب أن أي مجتمع يمكنه الدخول في دورة جديدة فقط عليه أن يخطط لذلك لان التطور الاجتماعي محكوم بعوامل نفسية ومعنوية غير مادية، مما يجعل المجتمع يتحكم في قوانين نشوء حضارته وهذا ما استدل به بن نبي في رجوع ألمانيا إلى قوتها بعد الحرب العالمية الثانية والتي بدورها تعرضت إلى دمار لم يلحق بأي بقعة على مستوى الكون، وبالتالي لم يكن لديها إلا سواعد أبنائها وعصارة أفكارهم، وللدخول في دورة جديدة لا بد من تنظيم الطاقة البشرية والمادية وإعادة تأهيلها .

تابع بن نبي آراء توينبي فوجدها مقنعة لأنها تفسر الهجرة التي حدثت في الحضارات القديمة وظهور حضارات جديدة في أماكن أخرى، وقد حدث ذلك بسبب الاستجابة والتحدي، وهذا ما تحدث عنه توينبي في أمثلته على الهجرة لبعض الشعوب بأعالي النيل إبان العصور القديمة وسكان الاسكيمو الذين لم يغيروا شروط وجودهم في بيئة قاسية، وهذا ما دفع بن نبي إلى البحث عن سند لهذا التفسير في المرجعيات الإسلامية ليجد أن القرآن الكريم قد وضع ضمير المسلم بين حدين متوازيين هما الوعد والوعيد أي انه وضعه في انسب الظروف التي من شانها أن تحدث استجابة لتحدي هو في أساسه روحي، إن فهم نظرية توينبي على ضوء الدين أنما تؤكد نزعة بن نبي الفكرية التي تبحث عن سند عملي ليخلص أن الدين هو الشاحن لعناصر الحضارة لأن له تأثير بالغ في مقوماتها، وقد اختلف بن نبي مع توينبي في إرجاع كل تلك التغيرات إلى عوامل طبيعية.

وقد خص توينبي في كتابه دراسة للتاريخ بالمجلد الرابع التغيرات التي تعتري الحضارة فتؤدي إلى سقوطها، فأكد أن المجتمع المتحضر يقاد عادتا بواسطة أقلية مبدعة، فإذا حدث أن توقفت هذه الأقلية عن إبداعها فإنها تتحول إلى أقلية مسيطرة وعندها يبدأ الانحدار والتفكك ثم السقوط الذي يمر حسبه بثلاث مراحل، الانحدار والتفكك و الانحلال، ويرى توينبي أن الزمن الذي يفصل بين هذه المراحل قد يكون قرونا، ويتفق بن نبي مع توينبي في أن أسباب سقوط الحضارة بدرجة الأولى

يكون داخليا وللجانب النفسي فيه درجة كبيرة، ويعزو بن نبي أن الاستعمار الذي حل بالعالم الإسلامي سببه القابلية للاستعمار، وخلال بحث بن نبي للقضايا التي تخص العالم الإسلامي لم يشك أبدا في قدرة الإسلام على النهوض بالحضارة على شرط واحد هو الرجوع للدين الإسلامي الأول الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ركز على الجانب الروحي الثري الذي يتميز به الإسلام والذي يحرك ويوجه الجانب السلوكي للأفراد و المجتمعات وبالتالي يكون هذا الجانب الروحي هو الشرط اللازم للإقلاع الحضاري، ولقد كانت نظرة مالك بن نبي للإسلام على أنه هو وحده الكفيل بتجديد الدورة الحضارية للأمة الإسلامية وأنه ليس معتقد غيبي ينطوي عليه ضمير المسلم وإنما هو نسقا مركزيا في نظام الحياة المتوازنة بكل مشاربها ومتطلباتها.

الحضارة والدين: شكل الدين حافزا قويا في فكر مالك بن نبي واعتبره شاحنا لعناصر الحضارة وهو شرط أساسي لقيام الحضارة، وقد اتفق في ذلك مع ابن خلدون الذي خصه بالكثير من الاهتمام معتبرا الدين كابحا ومنظما للقوة والعنف الناتجين عن العصبية القبلية، وفي الوقت نفسه حافزا لانفتاح الشعوب على بعضها البعض، والعاطفة الدينية عند ابن خلدون هي الوسيلة الراقية والمثلى في حل المشاكل العرقية وتقبل الأخر وتجنب الصراعات بين الجماعات الحاكمة والشعب، فهو أكثر من ضروري في تسير شؤون الدولة، واعتبر بن نبي الدين عنصر أساسي في التركيبة الحضارية حيث قال " الماء في الحقيقة نتاج الهدروجين والأكسوجين وعلى الرغم من هذا فهما لا يكونانه تلقائيا، فقد قالوا أن تركيب الماء يخضع لقانون معين يقتضي تدخل مركب ما من دونه لا تتم عملية تكون الماء، وبالمثل لنا الحق في أن نقول أن هناك ما يطلق عليه (مركب الحضارة) موجود فعلا هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ " (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 50).

وعلى هذا الأساس فإن بن نبي يعتبر الحضارة الغربية السائدة نابعة من أخلاق المسيحية ومبادئها مع أن المسيحية قد سبقت الإسلام بقرون فان الحضارة الإسلامية قد ازدهرت قبلها لأن الحضارة عند مالك بن نبي تولد مرتين الأولى عند ميلاد الفكرة والثانية عند انطباع الفكرة في النفوس، حيث قال "أن الحضارة تولد مرتين أما الأولى فبميلاد الفكرة الدينية وأما الثانية فهي تسجيل هذه الفكرة في النفوس أي دخولها في أحداث التاريخ" (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 61)، يرجع المفكر بن نبي تقدم الحضارة الإسلامية على المسيحية لكون الأولى وجدت بيئة تعاني من فراغ روحي، أما المسيحية فقد نشأت في وسط خليط من الديانات المتباينة مثل، اليهودية والرومانية واليونانية مما حال دون أن تنطبع في قلوب الناس وتؤثر فيهم، وفي هذا قال "لم يكن حظ الحضارة المسيحية في نفوس أهلها وبيئتها كحظ الحضارة الإسلامية فقد نشأت المسيحية في وسط فيه خليط من الديانات والثقافات العبرية والرومانية واليونانية فلم يتح لها أن تدخل قلوب الناس وسط الزحام الفكري والثقافي لتؤثر فيها تأثيرا فعالا " (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 62)، ولذلك لم تؤدي المسيحية دورها الفعال إلا عندما اعتنقتها القبائل الجرمانية البدوية في الشمال الأوربي، وبالتالي حدث تجانس بين الفكرة ونفوس الشعب الجرماني وهنا تكون المسيحية قد دخلت أحداث التاريخ، إن عناصر التحضر وشروطه موجودة لدى كافة الأمم والشعوب، لكن استثمار هذه الشروط وتفعيلها والتأليف بين عناصرها يحتاج إلى شرط خاص يتمثل في التحدي عند توينبي، والى عدم طغيان الطبقة الحاكمة وحدوث الصراع على السلطة وبالتالي يكون البناء الاجتماعي عند ابن خلدون، والفكرة الدينية التي تحتاجها الدورة الحضارية وفق منظور بن نبي، لأن حركة التطور الاجتماعي مصدرها عوامل دينية اجتماعية والدين هو شرط للتنظيم الاجتماعي ويحرك التاريخ ويصنع التقدم والازدهار، وعندما تقوى العلاقات الدينية تقوى شبكة العلاقات الاجتماعية وتنشط

حركة التطور داخل المجتمع وعندما يضيق مجال الفراغ الاجتماعي تكون المرحلة الثانية التي تولد فيها الحضارة بعد ظهور الفكرة الدينية (بوبكر، 2010، الصفحات 50-51).

إن الحضارة عند مالك بن نبي تلد منتجاتها ولا تكون بجمع أكوام من منتجات غيرها وهذه العملية لا تؤدي بالحضارة إلى البناء الحضاري وضرب مثالا باليابان الذي انتقل من حالة الجمود والتي يصفها بالعصور الوسطى إلى حالة الحضارة الحديثة بين عامي 1868- 1905، وهنا لا يدخل العامل المادي في عملية البناء الحضاري بقدر ما تكون فاعلية الفكرة، لأن الفكرة التي لا تثبت صحتها على أرض الواقع هي في الأساس فكرة خاطئة حتى ولو كانت تلك الفكرة أصيلة، فالاستعمار مثلا فكرة منبوذة لكنها صحيحة لأنها موجودة على أرض الواقع ولذا تحدث بن نبي على ألمانيا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية فقال لم يكن لألمانيا بعد الدمار الذي عرفته سوى سواعد أبنائها وأفكار مفكريها وطرح مجهودات العالم شاخت كمثال، وبعد مدة قصيرة أصبحت أكبر قوة إقتصادية في المنطقة، ودورة الحضارة تسير كالشمس التي تدور حول الأرض تشرق في أفق شعب ثم تتحول إلى أفق شعب أخر، وقد ذكر ابن نبي ارتباط الحضارة بالدين فقال " فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم ألا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعا ومنهاجا، أو هي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيدا عن حقبته، إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها " (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 56) وفي كل الحالات إن الإيمان بالله هو الذي يمهد للحضارة لأن الله كرم الإنسان بالعقل على بقية المخلوقات، ولما يبسط العقل سلطانه على عرش الحياة الفردية والجماعية تنهض العلوم والفنون والصناعات فهي نتاج

طبيعي لتولد الأفكار في ظل فاعليتها، وهنا تجد الغرائز والشهوات سبل ومنافذ للتحقق والإشباع لأنه ليس بإمكان العقل السيطرة عليها فهو ليس في مستوى الروح، إذ مؤشر بداية الحضارة هي الروح التي يكون منطلقها ديني وهنا تكون الشمولية في المعتقد وتخلق تجانس الشعوب دون طغيان الأغراض الشخصية ويكون بداية انطلاق البناء الحضاري، وضرب مثالا بالصحابي الجليل بلال بن رباح حينما رفع سبابته وهو تحت التعذيب وقال أحد أحد فهي صيحة الروح متحدية قانون الطبيعة والغريزة، طبيعة الفترة الجاهلية وغريزة القوم الذين كانوا يحاربون الدين الإسلامي، وجاءت الدولة الأموية بعد الفتنة الكبرى، فلب الخلاف لم يكن ديني بل كان سياسيا في قضية البيعة وإقامة الحد من قتلة سيدنا عثمان رضي الله عنه، وبعد واقعة صفين 37 هـ واغتيال سيدنا علي كرم الله وجهه من طرف الفئة الضالة ومحاولة اغتيال سيدنا معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه وفي النهاية كانت الدولة الأموية هي الفترة التي بلغت فيها الحضارة الإسلامية أوجها وبعدها جاءت مرحلة جديدة يضعف فيها تأثير الدين وتزداد الهوة ويزداد الفراغ الاجتماعي وتكون مرحلة الغريزة وبالتالي أفول الحضارة الإسلامية (شاوش، 2007، الصفحات 52-53) .

لقد ارتقى دور الإسلام في المشروع الثقافي للنهضة الإسلامية فهو ليس مجرد قيمة روحية أو تاريخية أو اجتماعية فالدين هو من السنن الربانية في الأرض وهو أساس جميع التغيرات الاجتماعية الكبرى في التاريخ، لهذا أيد ابن نبي دور الحركة الإصلاحية التي تنطلق من الفكرة الدينية في محاربة الاستعمار لأنه يعتبر أن أي محاولة للنهوض بالحضارة لابد من الرجوع إلى الدين الإسلامي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وكل محاولة دون الرجوع إلى الدين في هذا المجال فهي السراب لا يحمل من الواقع سوى النظرة الأولى قبل أن تصطدم بالحقيقة فالإسلام عند بن نبي هو الثروة الخالدة في يد المسلمين في كل الظروف وفي جميع المراحل التي تمر عليها وهو يؤكد على الإسلام القرآني السني المتحرر من سلطان التاريخ والأعراف وكل أشكال الوصايات والمصادرات

والتوظيـفات السياسيـة وغايات قاصرة ومصالح ضيقة على حساب الرسالة الإلهية وعظمة الدين الإسلامي (برغوث، 2012، صفحة 132).

الحضارة والتاريخ: شكل التاريخ عبر العصور مادة علمية اجتهد الكثير من المفكرين والفلاسفة لتفسيرها بعدما كانت تعتمد على الجمع والنقل والحفظ والاستظهار وكانت محاولة العلامة ابن خلدون رائـدة في تفسير التاريخ حيث استطاع قبل غيره أن يكشف منطق التاريخ في مجرى أحداثه، وقـام بصياغته ووضـع قانون الـدورة التاريخيـة في ناتج من نتاج الحضـارة فقد استعمـل مصطلحات خاصة به ولم ترق إلى الأخذ بالكل واكتفى بالتشريح الجزئي، فقد تكلم عن نشأة الدولة وتطورها في الزمان والمكان، ووضع نظريته في ذلك وبهذا وبما وصل إليه هذا الأخير قد يكون أسهم في التمكين لظهور فلسفة التاريخ التي بنيت على التحليل والتفسير للحوادث التاريخية ونقدها بشكل منهجي وتقديم المنهج القادر على تفسير الظاهرة التاريخية بشكل علمي مبني على الحقائق الجزئية إن لم تكن كلية، فالتاريخ عند ابن خلدون محتاج إلى مشارب متعددة ومعارف متنوعة وعلوم مفسرة وأخرى رافدة لأجل الوصول إلى التفسير المتكامل القابل لرفع الظاهرة التاريخية إلى مصاف العلوم المبنية على القرائن والدلائل العلمية الثابتة، لأن النقل والسرد إن لم يخضع لأصول العادة وقوانين السياسة وطبيعة العمران والأحوال السائدة في الشعوب والمجتمعات فإنه يبقى مادة جامدة لا تحاكي الوقائع التاريخية في مجريات التاريخ، ورغم الدور الذي قام به ابن خلدون في تأسيس فلسفة التاريخ وإبانة أركانه فإن ابن نبي يؤكد إن القرن التاسع عشر هو الذي أبان الوقائع الاجتماعية في إطارها الحضاري، وقد تكلم عن كارل ماركس الذي وجد في أوربا المبرر والدافع لإظهار نزعته المادية التاريخية (بوبكر، 2010، صفحة 40) التي تقوم على النزعة المادية في تفسير الظاهرة التاريخية، وأن كل بناء حضاري هو خاضع للحياة الاقتصادية، حيث قال ابن نبي "وعلى

هذا فإن ظروف ذلك العصر لم تكن لتدعو كارل ماركس إلى تحديد رأس المال من حيث هو آلة اجتماعية، وإنما من حيث هو آلة سياسية بين يدي طبقة معينة هي البرجوازية لاضطهاد طبقة أخرى هي البروليتاريا، فهو قد نظر إلى رأس المال من هذه الزاوية " (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 117) .

وقد أدرك أرنولد توينبي في تفسيره للتاريخ أن الرقعة الجغرافية لها دور بارز في نشوء الحضارة، ويربط هذه الأخيرة بعنصر التحدي والاستجابة وهي ردود فعل فكرية ومادية تقوم بها المجتمعات والشعوب لأجل خلق الانسجام والتجانس بين الطبيعة والإنسان، فالأولى تلعب دور التحديات وتنتهي هذه التحديات بالاستجابات التي تفضي إلى التقدم الحضاري أو عدم الاستجابة والتي ينتج عنها الاندثار وانتهاء الدورة الحضارية، لكن مالك ابن نبي لم يتفق مع توينبي في العامل الجغرافي وأن الحضارة هي ناتج ثلاث عوامل الإنسان والوقت والتراب، وللدين أهمية بالغة في تفاعل هذه العناصر وأن هناك حضارات ذات أصل ديني لم يكن للعامل الجغرافي الدور الأساسي فيها ولا حتى العامل الاقتصادي أيضا، ولعل الحضارة الإسلامية هي اكبر دليل على عدم فاعلية العامل الجغرافي، وقد أرجع ابن نبي أن التاريخ هو علم يتتبع ويدرس كل الأماكن التي يتردد عليها الإنسان أو يمر منها والتي تدخل في تأقلمه مع بيئته أي كل ما يؤثر على المجتمع ويغير من خصائصه، والتاريخ هو ذلك التغيير الذي تتعرض له الذات والمجال الذي يحويها على السواء، وأورد أن أوروبا قد تخلصت من العامل الجغرافي الذي يمثل القوميات فقال "أوروبا التي رفعت يوما شعار الوطنية الإقليمية المحدودة جغرافيا ... ولديها هذا النوع الجديد من الفهم للأمور في المجال السياسي، إن أوروبا هذه أصبحت اليوم تتخلص من تلك التوجهات القديمة تحت ضغط عوامل التاريخ القاسية، هذه العوامل المتمثلة في صورة قوانين مسيرة للمجتمعات الإنسانية أظهرت لأوروبا اليوم بشكل أكثر وضوحا من أي وقت مضى بأن المناطق الإقليمية المحدودة جغرافيا لم تعد تصلح" (نبي، في الحضارة وفي

الايديولوجيا، 2014، صفحة 29)، فالحضارة عند مالك ابن نبي سنن وقوانين منتظمة تفهم وتستثمر وليست منتجات حاجية أو كمالية مبعثرة تشترى وتستورد فهي لا ينبغي أن نفهمها على أنها منتوج أو منجز اجتماعي فحسب بقدر ما ينبغي أن تكون شروط موضوعية وسنن قابلة للفهم والتحكم في كل وقت، لأن التحكم في شروطها يمنحنا التجديد والإبداع من جهة والقدرة على المواجهة والوقاية المبكرة من ناحية ثانية (برغوث، 2012، صفحة 151)، إن للتاريخ دورة فهو يسجل انحطاط الأمم كما يدون عوامل نهوضها وله استمرارية كالنهر الجاري له نقطة بداية ويمر بعدة مراحل لينتهي إلى نقطة نهاية وتبدأ دورة جديدة، وهنا لا يمكن إغفال مكانة الأمة في هذه الدورة واستمراريتها وهذا بوضع مناهج وحلول وفق ما تستدعيه متطلبات تلك الأمة داخل الدورة الحضارية حيث يقول ابن نبي " وعلاج أي مشكلة يرتبط بعوامل زمنية ونفسية ناتجة عن فكرة معينة تؤرخ منذ ميلادها عمليات التطور الاجتماعي في حدود الدورة التي ندرسها " (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 53)، إن مشكلة أي شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته ولا بد عليه أن يرتفع بفكره إلى الأحداث الإنسانية التي تعمق فهمه في عوامل بناء الحضارات وتهدمها، ومن أجل هذا يجب أن نعرف المقياس العام للحضارة وهي أنها تلد منتجاتها ولا تكون بغير ذلك، وأن أي مشكلة فيها هي مشكلة في ثلاث أشياء في الإنسان أو في التراب أو الوقت أما التاريخ فهو دورة تسجل للأمة مآثر عظيمة ومفاخر كبيرة ومرة أخرى يلقي عليها اندثارها .

لقد شهد القرن العشرين مناهج متعددة في فلسفة التاريخ فقد رد جيزو وكسرلنج تكوين الحضارة في التاريخ إلى عوامل دينية تمثل تركيبا مصدره المسيحية، ثم جاء سبنجلر الذي أرجع تكوين الحضارة إلى عبقرية وموسوعة ملكات ذاتية خاصة ليست في متناول الجميع، ومثل هذا الحديث يقول مالك ابن نبي أنه يقود إلى العنصرية وهي المدرسة الهتلرية على يد روز بنرج، ثم جاء الفيلسوف

الألماني ولترشوبرت حيث اعتبر الحضارة ناتج عبقرية عصر معين وليس باعتبارها نتاج عبقرية جنس معين، وقد طرح الفكرة في كتابه أوروبا وروح الشرق.

الحضارة والثقافة : تحدث ابن نبي على أن الحضارة عامل فعال في بناء الدورة الحضارية حيث تعمق فيها ولم يكتف بتشخيص عناصرها، وقد اقترح برنامجا متكاملا يعمل على شحن عناصر الثقافة وهذا لأجل الرقي بالأمم إلى مصاف الحضارة وفق تخطيط منهجي ومدروس، وفي الكثير من الأحيان لا نفرق بين الحضارة والثقافة فهما في الأغلب مترادفتان لكن ما يفصل بينهما أن الحضارة تمثل الجانب المادي داخل المجتمع، والثقافة تمثل الجانب المعنوي فيه وهنا نستطيع القول بان الثقافة هي إنتاج معرفي وعقلي، والحضارة من الحضر والتمدن لكن العلاقة تبقى بينهما علاقة تلازم حسب ابن خلدون فهو يقول "إن حضارة أي مجتمع أو ثقافته إنما تتمثل في القيم والمعاني والتنظيم التي تنطوي عليها حياته" (خلدون، دت، صفحة 1124)، إن حضارة أي أمة عبر التاريخ هي التطبيق المادي والاجتماعي للتراث الثقافي ونجد أن الكلمتين في اللغة الألمانية ذات دلالتين ذاتية فهي ثقافة العقل وموضوعيته وهي سائر العادات والظروف الاجتماعية والتراث الفكري والعادات والتقاليد والفنون والآداب وكل القيم في مجتمع معين .

يعرف بن نبي الثقافة بأنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته وهي المحيط الذي يشكل الفرد فيه طباعه الشخصية، وفي نظره فان توجيه الثقافة يعني توجيه الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية، لقد تبين من خلال طرح مالك بن نبي أن الثقافة لها دور بارز في بعث الحضارة وقد فصل بالشرح في أربع عناصر مهمة من شأنها أن تبعث في الثقافة القدرة على تحقيق غايات النهضة، واهتم المفكر ابن نبي بالتوسع في الدستور الخلقي وقد تطرف للأخلاق من الجانب الاجتماعي ولم يدرسها من الزاوية الفلسفية، فقد أراد أن يحدد قوة التماسك الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، فهو لا يرى أن العناصر المادية يمكنها أن تصنع ثقافة

دون وجود المبدأ الأخلاقي الذي يعد ضرورة منطقية اجتماعية وشرط أساسي من شروطها، والأخلاق قوة مرتبطة في أصلها بالغريزة التي تمثل الحياة في جماعة بالنسبة للفرد وهي في الأخير عنصر جامع، وينعكس في شكل جماعة أو قبيلة ثم مدينة وأمة وبالتالي تسير في طريق تكوين حضارة إذا كانت الأخلاق تدخل في بناء الثقافة، وهي ضرورية في تكوين الحضارة فان الأخلاق ترتبط بالفكرة الدينية والتي تساهم في بعث الحضارة أيضا .

قد ذكر ذلك المفكر الجزائري ابن نبي فقال "هذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض تأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم" (نبي، شروط النهضة، 1976، صفحة 94)، ولهذا فان للمبدأ الخلقي جذور ترتبط بالدين، وهي الأساس الذي تقوم عليه ثقافة أي مجتمع، وأن علاقة الفرد بمجتمعه هي في الحقيقة ظل للعلاقة الروحية في إطار الواقع التاريخي، والمبدأ الأخلاقي هو الذي يكون الضمير ويكبح الغرائز ويهذب المصالح وينظم شبكة العلاقات الاجتماعية والثقافية بحيث تكون الثقافة بجميع عناصرها المكونة لها هي عبارة عن مجموعة من القواعد الأخلاقية والجمالية ومفهومها مرتبط بالحضارة من حيث المفهوم والوظيفة الاجتماعية والتاريخية، فهي علاقة متبادلة تحدد السلوك الاجتماعي للفرد داخل مجتمعه والتبادل فيها يتم بين الجانبين من خلال المجتمع ويدخل فيه الجانب النفسي والاجتماعي، ويرى ابن نبي أن الشعوب السامية قد أسست ثقافتها على القواعد النابعة من القيم الأخلاقية في حين هناك شعوب قد أسست حضارتها على القيم الجمالية مثل الشعوب الآرية التي ركزت على الصورة والشكل، لكن هذا لا يعني أن تلك الحضارة قد جردت من القيم الأخلاقية فهي قد نشأت وفق الفكرة الدينية المسيحية .

المفكر الجزائري ابن نبي لا يفصل مبادئ الأخلاق عن الذوق الجمالي في بناء اتجاه الحضارة، غير أنه يقدم المبدأ الأخلاقي على الذوق الجمالي في سلم القيم الثقافية، وفي هذه الحالة ينبثق نموذجين من المجتمع واحد أساسه الدوافع الجمالية والآخر يرتكز على الدوافع الأخلاقية، وهنا وضع المفكر بن نبي مقارنة بين المجتمع الغربي والإسلامي وأخذ على سبيل المثال المرأة، فالغربيون انطلقوا من جانب معين في إبراز جمال المرأة وقد ركزوا على المظهر خاصة، لكن الإسلام أعطى بعدا أعمق للمرأة وركز على الجانب الأخلاقي فيها وقد أقر ابن نبي أن المركب الفعلي والحضاري هو الذي يجمع بين المبدأين الأخلاقي أولا والذوق الجمالي ثانيا فمشكلة الثقافة لا تخص طبقة دون أخرى بل هي تخص مجتمعا كاملا والشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه .

يؤكد ابن نبي أن قوة التماسك الضرورية لإعادة صياغة الإنسان وإعادة بناء المجتمع موجودة في الإسلام لكن أي إسلام؟ إنه الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي، فمثلا إذا أخذنا القدوة الصالحة التي يراد توفرها في سلوك المسؤول أو رئيس العمل لا تكون منتجة إلا ضمن إطار ثقافي أخلاقي بأتم معنى كلمة أخلاق، ويربط ذلك بالعلم والدين فالعالم الذي يفقد نشاطه الدافع الأخلاقي قد يضعف لديه الاندفاع نحو تحقيق المعطيات العلمية، فهو مدفوع بالمبدأ الأخلاقي نحو عمليتين، عملية هي مجرد علم وعملية أخرى فيها تنفيذ وعمل، وإن الثقافة لا تمثل علما من العلوم تتخصص فيه فئة معينة إنما هي نظام تقتضيه الحياة بشكل عام ووظيفتها اجتماعية تربوية تاريخية، فلا يمكن الحديث عن الحضارة دون ربطها بالثقافة، فهي المجال الذي يبرز فيه المجتمع المتحضر.

خاتمــة:

شكل فكر مالك بن نبي بعدا فلسفيا في دراسة الحضارة، وخصها بكثير من التدقيق في نشأتها وتطورها، فالحضارة في فكره تلد منتجاتها ولا تخضع لتكديس الأشياء، فهي تنطلق من

صفاء النفس والروح وتخضع للعقل وتنتهي بطغيان المصالح الشخصية على المنفعة العامة، ويلعب الدين دورا بارزا في شحن عناصرها، وللفكر مكانة خاصة في العمل الحضاري، فهو يؤمن بفعالية الفكرة وتجسيدها على أرض الواقع، وهنا نخلص من هذا العمل إلى عدة نتائج:

- إن الحضارة عمل جماعي لا يتاح إلا بتوفر عناصر ثلاث: الإنسان والوقت والتراب حسب مالك بن نبي.
- للحضارة دورة حضارية تبدأ بمرحلة الروح التي يكون العمل فيها خالصا لله تعالى، ويكون الهدف وحدا يسوده التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ثم مرحلة العقل التي تبلغ فيها الحضارة أوجها، ثم تأتي مرحلة الانحطاط التي أطلق عليها مالك بن نبي مرحلة الغريزة، وهي تمثل نهاية الدورة الحضارية، ويكون المجتمع فيها ما بعد الحضارة.
- الحضارة والدين: يمثل هذا الأخير عنصرا بارزا في تفاعل عناصر الدورة الحضارية الثلاثة، وهو شرط أساسي لقيامها.
- الحضارة والثقافة: فهي نتاج الحضارة ومن أبرز ركائزها وهي موروث حضاري يشهد على مدى رقيها أو انحطاطها.
- الحضارة والتاريخ: لكل حضارة تاريخ خاص بها يسجل مآثرها وإنجازاتها، ويكون شاهدا على قيامها وحتى أفولها.
- أثرى مالك بن نبي الساحة الثقافية الإسلامية المعاصرة بإنتاجه الفكري المتميز.
- أنتهج أسلوب فريد من نوعه في معالجة القضايا المعاصرة للأمة الإسلامية.
- تعد مؤلفاته مكسبا حيويا كبيرا لحركة البناء الحضاري الجديد للأمة وكتاباته أحاطت بشخصية الشعب الجزائري والعالم الثالث الذي كان وما زال خارج إطار الحضارة الحديثة.
- جاء مالك بن نبي بنظريات جديدة للحضارة والظاهرة الاستعمارية في البلاد المستعمرة.

لقد نظر بن نبي بنظرة شاملة للواقع العربي والغربي وصنفه ضمن منظور حضاري، وأعتبر أن مشكلة الأمة مشكلة حضارية بالدرجة الأولى، وتجاوزت نظرته نظرة بعض المفكرين الإصلاحيين السابقين وخصوصا فكرة القابلية للاستعمار باعتبارها عاملا داخليا، ويبين أن الاستعمار يريد منا البطالة والجهل والانحطاط في الأخلاق والتفرق وأن باطننا سيستجيب لكل تلك الطلبات لأننا نملك القابلية له، وأن على الأمة أن تغير من نفسها بالرجوع إلى مرحلة الروح التي منطلقها الدين، لأنه يعتبر شحنة دافعة في عملية التغيير وأن الأمة الإسلامية صنعت أمجادها من خلاله.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن منظور, ج. ا. لسان العرب (1 ط). بيروت: دار الفكر.

التوبة, غ. الفكر الإسلامي المعاصر (1 ط). بيروت: دار القلم.

الزبيدي أبي الفيض , م. م. ا. تاج العروس من جواهر القاموس (1 ط). بيروت: دار الفكر.

بن نبي, م. (1986). ميلاد مجتمع (1 ط). سوريا: دار الفكر.

بن نبي, م. (2004). الظاهرة القرآنية (1 ط). سوريا: دار الفكر.

بن نبي, م. (1978). مشكلة الحضارة. مجلة الاصالة, 1(54), 22-31.

بن نبي, م. (2014). في الحضارة و الإيديولوجيا (1 ط). الجزائر: دار عالم الأفكار .

بن نبي, م. (1984). مشكلة الثقافة (1 ط). سوريا: دار الفكر.

بن نبي, م. (2005). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي (1 ط). الجزائر: منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية .

بن نبي, م. (1991). القضايا الكبرى (1 ط). سوريا: دار الفكر.

بن نبي , م. (1976). شروط النهضة. سوريا: دار الفكر.

بن نبي, م. (2002). وجهة العالم الإسلامي (1 ط). سوريا: دار الفكر.

بريون, ف. (2010). مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة (1 ط). سوريا: دار الفكر.

برغوث, ا. (2012). محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي (1 ط). الجزائر: دار الشطايبية للنشر والتوزيع.

جيلالي , ب. (2010). البناء الحضاري عند ماك بن نبي (1 ط). الجزائر: دار المعرفة.

خالد, ن. (1997). التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي دراسة في بناء النظرية الإجتماعيه (1 ط). السعودية: الدار السعودية للنشر.

شاويش, م. (2007). مالك بن نبي والوضع الراهن (1 ط). سوريا: دار الفكر.

شريف, م. (2000). رهانات النهضة في الفكر العربي (1 ط). الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر.

محمود, ع. ا. (1983). المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب (1 ط). بيروت: الدار العربية للموسوعات.

لحرش, م. (2006). إستراتيجية استئناف البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي (1 ط). الجزائر: المطبعة الجهوية قسنطينة.